من يعرف الغريق

قصة بقلم

عبدالرحمن الربيعي

(يا للأسف ! لماذا هذه الاشياء وليس غيرها ؟)

ـ بو مارشيه عن (الاحمر والاسود) ـ

ـ ١ ـ

في الوجنتين نمش خفيف . عندما تمتد اليه الانامل قد تخدشه . ناعم كهمسة . اما في العينين فبريق نادر. من أتى بهذه الدفقة من العطر والنور لهذا الشعر المنسدل على الكتفين ؟ لهذه الخصلة الطائرة المترنحة التي تواصل اليد الصغيرة دفعها لتنتظم في صفها ؟

تبتسم له . يبتسم لها . النثيث ، والاقدام المهرولة، الباصات الكبيرة . وكاسحات المطر من زجاج السيارات، الناس والمظلات ، الذين ينعمون بالرفقة . والوحيدون والمهجورون ، وقطة صغيرة تنوس امام مدخل زجاجي لمطعم منزو .

ـ ٢ ـ

ـ أتعرف تلال الرمل ؟ والوجوه المعفرة ؟ والاصوات المنسحقة الذائبة ؟ أتعرف السخونة التي تعطل اندماغ واغاني « البوذية » ونواح النساء المتشحات بعباءات سوداء؟ أتعرف الازقة الزنخة والصبية الحفاة والدجاج والبرك والفائط والانين والجدران الطينية وعيون الامهات ؟

ـ ٣ ـ

أتركك للزنابق ، واحتضار الياسمين . أتركك للفرح القادم والنيات الحسنة، والبحث عن الاشرعة والمجاديف . أتركك للعطب والحلم والمستحيل . أتركك للخبل ، والسفر والحنين . ثم اعود واجدك كما تركتك ذات يوم . اتأمل سماوات عينيك . اخ ، من هي تلك الجزيرة المترامية ؟ وأين المواقع والبقايا ؟ من يبقى او يزاح ؟ من يلتمع او نخبو ؟ من يغني ؟ ومن يتدثر بالصمت والبرود ؟

ـ ٤ ـ

هبت نسمة باردة فتلفعت بمعطفها جيدا ، وخبأت عنقها الوردي في ذلك الدفء ، وشع من القماش وجهها المنمش . وبرقت فيه عيناها الخضراوان .

ابتسم لها . اغدق عليها بما تكدس في صدره من بسمات قديمة لم تجد الوجه الذي يستحق ان يسفحها له بلا حساب . ثم قرصها من انفها فنطت بضحكة صافية . رنت في وحدة الليل وهدأته ثم دست يدها تحت كتفه .

كان راسخا،ثقيلا وطويلا كجدار تصعب زحزحته ثم استحثته ليمضي معها ويتحرك في الطريق .

توقفا مرات . امام اعلانات وكتابات على الجدران ، امام صلبان معقوفة ومطارف ومناجل . وتصفحا وجوها متعددة الجنسيات يحملها الليل والتعب الى فنادقها .

ـ اشتهي ان اكل الآيس كريم .

ـ والبرد ؟

ـ لا تخف ، سيكون هناك تعادل بين برد الخارج وبرد الاعماق . هكذا رد عليّ اصدقائي السوفييت عندما استضافوني في موسكو قبل عامين .

واخذا يلطفان « الآيس كريم » وهما امام واجهة مخزن لبيع الملابس النسائية الداخلية . وقد وزعت ما بين واجهة العرض وارضيته . فتبدو وكأن امرأة خلعتها مسرعة لتنضم مع من تحب في مخدع حان .

قرّب فمه من اذنها ثم طوقها بذراعه . الملابس وردية وسوداء . حمالات صدر وكورسيهات . ونساء عاريات بأوضاع رياضية تظهر جمال الموديلات . اندست تحت كتفه منتشية من امتداد قامته . ولسانها ما زال يلطع « الآيس كريم » .

ـ انظر ما اجمل هذه الصورة !

ـ يبدو انها الرد على وليمة الجنس والاشتهاء هذه ؟

الصورة :

ثلاثة اطفال . احدهم امسك بناي وآخر ببوق وثالث بأكورديون ، وكانوا يلوون اجسادهم مع ايقاع اللحن الذي تبثه آلاتهم الموسيقية . في وجوههم حبور نادر . ومن حولهم تطايرت بالونات ملونة . رسمت عليها وجوه اطفال وحيوانات وزهور ملونة .

ـ انها جميلة فعلا ، لكن حبورهم لم اعرفه يوما

ـ ولا أنا .

ـ لكن ضعف بصري لا يجعلني اتمتع بجمالها .
ـ أتريد ان اصفها لك ؟
ـ لن تصلي اليها . التمتع غوص واكتشاف ومعانقة .

لو حدثوني عنك عامين . وملأوا أي قاموسا بكل كلمات السحر والجمال لما آستطاعت آن تغنيني عنك . عن روعة اكتشافك التدريجي . امسك بيدك ، واقبل شفتيك وعينيك ، اراك وأنت بالمعطف مقرورة ترتجفين، ثم وانت في آلفراش عارية تفحين رغبة وعطاء . اي وصف يكون بديلا لي عن هذه الحياة ؟

وازدادت التصاقا وتشبثا به . وبعدما انتهت من لطع « الآيس كريم » اخذت تفرك يديها ببعضهما لتجلب لهما الدفء .

ثم نط وجهها المشع وهي تتساءل :
ـ وبعد ، الى أين ؟
ـ لديّ في الفندق زجاجة ويسكي ، ما رأيك ان نحملها ونعود الى شقتك ؟

وأمسك كل منهما بيد صاحبه وراحا يهروالان باتجاه الفندق كمجنونين خليين ، لن تهمهما عناوين الصحف ، ولا أفواج آلسكارى والمتسكعين ، ولا عيون السائحات اليابانيات التي تتأملهما بابتسام من وراء زجاج المقهى .

ـ ٥ ـ

رجل بطرطور على رأسه . وجهه يبتسم . وثمةحبل طويل يسير عليه بخفة . كان يمد ذراعيه الى جانبيه باستقامة ليوازن خطواته على ذلك الحبل . يميل الى هذا الجانب تارة والى ذاك تارة اخرى ، ثم سرعان ما يستعيد توازنه ويواصل الخطو . بينه وبين الارض قرابة الخمسة امتار .

ـ آن تشبثه بالحياة هو الذي يجعله يجتاز التجربة بنجاح .
ـ وقد يكون العكس ؟
ـ انه يكرر اللعبة كل ليلة ربما منذ سنوات ، هذا عمله الوحيد ، وهذا مؤهله في حياته . وان شاخ سيحولونه الى عمل آخر ضمن حدود السيرك ايضا . ربما جعلوه حامل سلم او سائسا في الاسطبل او مربيا للقرود .

تطفأ الاضواء بعد ان يؤدي الرجل تمرينه بنجاح، تصفيق خلي من الجمهور . يعتلق الضوء في جانب آخر من الساحة الدائرية . ويظهر قفص حديدي كبير ، فيه سلالم وبراميل كبيرة وجذوع اشجار . وامرأة عارية الا من مايوه ذي قطعتين ، قماشه يلتمع مع تلألؤ المصابيح في الساحة . المرأة تمسك بيدها سوطا وجسدها رقيق مثل غيمة بيضاء .

وعلى جانب القفص وقف رجل امسك بيده آلةتشبه البندقية ، في نهايتها سهم . فتح الباب وتدفقت مجموعة من الاسود . كانت تزأر وتتدافع من اجل ان تجد لها مكانا في القفص . تتوزع فوق البراميل والسلالم وجذوع الاشجار . آلمرأة تصفعها بالسوط مع صيحة امر تطلقها حنجرتها الناعمة ليأخذ كل منها مكانه بعيدا عن الآخر .

الاسود تزأر ثم تنكس رؤوسها مذعنة لصفعة السوط . العيون متسدودة الى المنظر . يتمرد احد الاسود ويرفع يده مقاوما صفعة السوط ثم يجلس على قائميته متهيئا للوثب باتجاه المرأة . يصوب اليهالرجل بندقيته ثم يطلق السهم . يمرق السهم بخفة ثم يستقر في كتف الاسد . يتسرب الخدر الى عروقه فيدير رأسه يمينا وشمالا كالمستنجد ثم يبرك وينكفيء على وجهه .

ـ ٦ ـ

الاسود والنساء . البهلوانات والقرود . وانت تديرين مقود سيارتك . تشعلين انوارها لتتعرفي على طريقك وسط برك المياه آلتي خلفها المطر . تدفعين سبابتك لتحسني وضع نظارتك الطبية وترددين :
ـ كان الطبيب غبيا . لقد اعطاني نظارة تحتاج آلى رأسين مثل رأسي حتى تستقر عليه تماما .

وتضيف :
ـ لولاها لربما خلت آلجدران طرقا سمحة . كلهذا بسبب جنون القراءة والكتابة ، قف ، من دلنا على هذا الجنون ، امي تطلق علي لقب العضو العائب في جسم العائلة . يا للمسكينة ! لولا هذا لما اكتشفتكم ايها العرب الرائعون ، احببتكم وتعلمت لغتكم . ثم قرأت تاريخكم وادبكم وملأت مجلات الاستشراق في دراساتي عنكم ، كتبت حتى عن شعرائكم المغمورين ، وربما اولئك الذين لا تعترفون بهم ايضا ،ثم ها انا معك اخيرا .أليس هذا جنيا لفرس جنوني ؟
ـ من منا السعيد في ذلك ؟

وتهز كتفيها وهي تتحاشى سيارة مرقت بمحاذاتها تماما . وتقول :
ـ كلانا . اعطيتني بقدر ما اخذت مني .
ـ وهل نحن نبحث في حساب الربحوالخسارة من وراء كل هذا ؟
ـ ظننت انك قد فهمتني ؟
ـ اتشكين في ذلك ؟
ـ لا ، ولكننا احيانا بحاجة آلى الايضاحات الصغيرة . اسمع ، انا معك لانني مقتنعة بك . مارست معك الحب بكل رغبتي ، تحدثت معك ، كتبت لك رسائل غارقة في السخف والجنون ، وتمنيت ان تكون معي دوما، ولكنني قد آنسف كل هذا في لحظات . حياتي لم اخضعها الى مراجعات ، تركتها تمضي هكذا . تزوجت مرة . وعشت مع رجل تسعة شهور ثم امسكت به من اذنه وركلته على قفاه ومن يومها لم ار وجهه . مارست الحب مع رجال لم التق بهم ثانية ، سكرت ، سافرت ، نمت في الشارع ، جعت ، ولكن حياتي كانت تفتني وتمتلىء دائما.

يتحسس اجزاء التمثال بأطراف انامله . وكان يخبيء اندهاشه ولا اقتناعه . شيء اشبه بالقيثارة الكبيرة الخالية من الاوتار يجثم على قاعدة عالية ، لها رؤوس مستديرة تحيلها الى ما يشبه الزهرة . وثمة اسطوانة تلتصق بقلب القيثارة وقد حفرت قاعدتها وامتد منها تجويف ليس بالعميق . كما وضعت قنينة كبيرة على مبعدة لا يربطها بقاعدة التمثال الا جسر من الحجر الصفيل ، وتمة جسر اخر يربط ما بين الزجاجة والاسطوانة .

يظل يربت بيده ، ويتطلع متمعنا . ثم يحني رأسه ويدور مرات ضاربا براحه يده على هذه الهيئة الحجرية الضخمة التي لا بد وان انفق الفنان معها عدة شهور وهو يفرس ازميله في كتلتها الصماء محاولا ان يستخرج منها هذا الشكل الذي لا يدلل على معنى مميز .

(كان طريق تنشيط الفن الحديث ـ منذ عهد سيزان الى الفن التحليلي للمكعبات ـ طريقا مستقيما يؤدي الى التجريد . ومنذ عهد التصوير الواقعي للفنان سيزان حتى ظهور مسطحات ووجوه المكعبات للفن التحليلي للمكعبات، تقدم التصوير الحديث خطوة نحو التجريد . على ان الفنانين عندما بلغوا نقطة ما في سبيل التجريد ،توقف المنمرسون منهم في فن المكعبات وغيروا اتجاههم نحو الفن التجريدي) .

ـ عن كتاب « حول الفن الحديث »
لجورج فلانجان ـ

امتلأ جسده بالعرق فمد يده الى جيبه واستخرج منديله (عادة يحتفظ بها منذ السنوات الاولى له في احدى القرى ، وحيث كان المنديل يشكل جزءا من اناقة الرجل. والذين يبالغون في اناقتهم كانوا يضعون المناديل في صدور جاكتتاتهم ، وباوضاع مختلفة ايضا . وغالبا ما يختارون لون المنديل بلون ربطة العنق) . واخذ يمسح العرق المتفصد على جبينه وعنقه (كان ايضا في السابق يضع المنديل تحت ياقة القميص حتى يمتص العرق في الايام الساخنة ولا يجعل ياقة القميص تتسخ بسرعة وخاصة اذا كانت بيضاء).

ـ اتريد ان احدثك عن هذا التمثال ؟
ـ الا تحسبين بأن التجربة فيه باهتة فوقية ؟
ـ ربما لا ، وربما نعم ايضا .
ـ وما المبرر في هذه الحيرة ؟
ـ هذا موضوع حديثي معك الليلة . لقد تطارحنا الغرام بما فيه الكفاية ، وتحدثنا عن العرب واشكالات واقعهم وعن ذلك الشاعر الذي مات بكبرياء ، وشربنا زجاجة الويسكي التي جئت بها من الطائرة بعشر ثمنها الاصلي و ..
ـ كفى .

وضع يده على فمها . وبعد ان كفت عن الكلام رفع يده ثم قبلها وضمها الى صدره بحب .

من المنطاد الى الطائرة . من الاساطير الراسخة التي يعرفها الابناء والاجداد ، اكشف لك عن سر خبأته نجمة منلألئة او خرافة في فم منجم عجوز . فيتاغورس وارسطو . بطليموس والكلبة لايكا ، القردة والرجال . العيون والانوف ، الصمت والندوي ، الصينيون واليونانيون والهنود ، العرب والفرس ، ليوناردو دافنشي وجواد سليم ، البنزين وبخار الماء ، العذاب والفرح الخفي، الامتاع والمؤانسة .

رجل وجل يضع قدمه في تلك المركبة المبهمة ،يحمل جسده تم تصطفق ابواب الزنازين . أنت والفضاء والملائكة والنجوم ، انت والشمس والقمر ، الاسرار والحكايا ، الخفاء والعلن . تبعد عدسة التصوير وتتطلع بعينيك المجردتين . انها رحلة الكشف والانبهار ، ليبطل التنبؤ ، وتحال الاسرار الخفية الى وقائع مدونة في كراريس . التهلف في تلك الوجوه والعيون . الابتعاد والاختراق . هل من المجدي ان تقول وداعا ؟

يده على صدغه . تستقر تارة وتنفلت تارة اخرى . تقرصه نارة ثم تدلكه . امامه زجاجة ماء فارغة . امسك بها قبل لحظات وكرعها الى آخرها .

ما زال الصداع وما زالت الحمى . ينهض ويدور في الغرفة الموصدة ، يدخل التواليت .ثم يدس اصبعه في فمه ويحاول ان يتقيأ . لا شيء غير الماء يرفع رأسه الى أعلى . رأس « الدش » بثقوبه الفاغرة يحدق فيه . يخلع ثيابه بتمهل ويرميها في جوف الغرفة قطعة قطعة . يفتح الصنبور فيتدفق الماء من ثقوب « الدش » باردا ولذيذا .

بعد زمن يسحب قدميه الحافيتين . الماء يتصبب من جسده . يقف امام مرآة الخزانة ويتملى كيانه . يفتح عينيه جيدا ليتعرف على كل عضو فيه . ثمة حيوان اسطوري يلتصق بمرآة الخزانة . يقتحم الجدران الصماء والمصعد والناس والسرر والممرات ليلتصق في جدران هذا المنفى العليل .

ـ ما الذي جاء بك ؟

يطلق هذه الصرخة الشرسة المستفيثة والمنددة كذلك . ثم يضحك ويضحك . يرتج الباب وزجاج النافذة وذراع « الدش » ، ثم ينتبه الى ان عليه ان يبكي بدل هذا الضحك الهراء .يحاول ذلك . يستجدي الدمع والنحيب، الجبال والحفر ، تدلف خيول مطهمة . وفرسان ملثمون. زغاريد نسوة . وهياج مهزومين ، اطفال وشيوخ ، عمي وصم وبكم . أعين وافواه ، كلاب ، قردة . واطباق طائرة . نشيج وصبر طويل .

كان مرميا في جوف الغرفة ، ملتفا حول نفسه . محتميا وخانعا . الماء يغطي الغرفة . يطفح من النافذة وشقوق الباب . يحاول ان يحرك يديه ليعوم قليلا لكن الشلل يقتنصهما فيظل متخثرا في القعر .

بغداد